



MIDDLE EAST RESEARCH AND STUDIES

Source : AN-NAHAR
Date : 12-24
Photo No. : 51

التسيب الأوروبي

لا يقتصر الامر، في كل هذه الحالات، على تآكل السلطة ولا على تفشي الفساد. فالقضايا المطروحة امام القضاء لا تطاول فقط الإجزاب المترهلة او المسؤولين الذين امضوا عقوبدا في السلطة. ومن جهة ثانية، يجمع الخبراء على ان حجم الفساد اليوم لا يتجاوز بالضرورة ما كان عليه في فترات سابقة. ما تغير في الحقيقة هو استعداد المجتمعات للقبول بجواز استثناء السياسة من القواعد الاخلاقية العادية، وفقا للقراءة المبسطة لفلسفة مكيافالي ("في السياسة، الغاية تبرر الوسيلة"). يقابل هذا الرفض مفهوم اخذ في الشبوع، وهذه مفارقة لافتة، بدفع من تجربة اوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي تحديدا؛ انه مفهوم "الشفافية" المرادف لكلمة "غلاسنوست"، وان يكن تداوله في الغرب سابقا على التجربة الغورباتشيووية.

يبد ان "الشفافية" المرترجة، وهذه المفارقة الكبرى، تفضي في الحقيقة الى غموض مزدوج: غموض في ممارسة "الشفافية"، اذ بات فضح ألعيب رجال السلطة يخضع لقواعد قضائية واعلامية لا تكون واضحة للجميع، فيدان فلان بسرعة بينما تتأخر اداة اعلان؛ وغموض فكري، لعله اكثر تأثيرا، يكتنف وعي المجتمعات لمعنى السياسة، فيلتبس فهم الشأن السياسي بمفاهيم اخلاقية قد تكون سديدة ان كان الهدف دخول الجنة ولكنها لا تمت بصلة الى جدول اعمال مجتمعات اوروبا المتأزمة. وغالبا ما تكون النتيجة في هذه الحال المزيد من الازعاف. ولعل ابرز مثال على ذلك كان انتصار حزب برلسكوني المستحدث في الانتخابات الايطالية الربيع الماضي. اما وقد وصلت موسى القضاء اليوم الى ذنن برلسكوني اياه، وهذا ما كان متوقعا (اذ لا يصح الا الصحيح)، لم يعد بمنأى عن حملة "الشفافية" الا حلفاءه من الفاشيين. وكذلك في فرنسا، يسمح تلوث اليمين والحزب الاشتراكي على حد سواء بأن يرفع جان ماري لوبن، زعيم اليمين المتطرف، شعار "ايد نظيفة ورأس مرفوع". انها امتامات جزء من اوروبا اليوم. قد تبدو بعيدة للغاية انا نأظر اليها من زاوية عالمنا الثالث حيث لا حاجة للكثير من "الشفافية" لكشف جرائم اكثر هولا واكثر علانية.

يقال عادة عن الثورات انها تلتهم ابناءها. هكذا حصل بداية مع ام الثورات المعاصرة، اي الثورة الفرنسية الكبرى، ثم مع الثورة البلشفية. فما كان من تكرار الظاهرة في هاتين الحالتين العظيمتين الا ان افضى الى صوغ قاعدة "اكل الابناء" ودخولها الوعي العام. وبالفعل، امكن رصد الظاهرة نفسها في كل الثورات اللاحقة، كبيرة كانت ام محدودة، والاخيرة كانت الثورة الايرانية التي خضعت بدورها للقاعدة.

اليوم انتهى عصر الثورات، على ما يقال. الا ان ظاهرة "اكل الابناء" لم تزل. فما هي تنتقل الى الانظمة الديموقراطية التي قامت على مبدأ الثبات ونبتذ الخضات المفاجئة والعنيفة. وتكفي جولة صغيرة في اوروبا الغربية لتبيان حجم هذه الظاهرة. فمن اسبانيا حيث تشهد شعبية رئيس الوزراء فيليب غونزاليس، الثابتة طوال الاحد عشر عاما الماضية، انحدارا سريعا بسبب التجاوزات المنسوبة الى صهره؛ الى ايطاليا، حيث تحظى حملة "الايادي النظيفة" (Mani Pulite) بدفع جديد بعد اشهر من الركود كان سببه وصول سيلفيو برلسكوني الى رئاسة الوزراء؛ مروراً بفرنسا، حيث تتسارع وتيرة الملاحقات القضائية ضد عدد من الوزراء والنواب، وصولا الى بلجيكا وبريطانيا، صارت الحياة السياسية في جزء كبير من اوروبا الغربية تخضع للمنطق الجنائي، واحيانا لما يسمى "حكومة القضاة".

مدير/ باريس - سمير قصير